إعادة الاعتبار للغة العربية في المجتمع العربي

أ. د. عبد الرحمن الحاج صالح
(رئيس المجمع الجزائري للغة العربية – الجزائر)

لقد كنا في الخمسينيات وما بعدها نسمّى العولمة الثقافية بالغزو الثقافي وكان الوطنيون المخلصون يدعون إلى مواجهة هذا الغزو ومحاربته فيما صدر منه من السطو الاعتداء. واعتمدوا في ذلك على تنظيم الحملات الإعلامية بنشر المقالات في الصحف وإلقاء المحاضرات العمومية إلا أن هذا لم يتم ربطه بسياسة الحكومات وكان يمكن أن تقيمها وتسندها وكان أثر كل ذلك وتأثيره ضئيلا جدا.

وكانت أنشئت قبل ذلك الهيئات الثقافية كالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وكان من أهدافها تنمية الثقافة العربية والحفاظ عليها. وعلى الرغم من الجهود المبذولة من كل الجهات فإن هذا الغزو لم ينقطع في يوم من الأيام ولم تخف وطأته أبدا حتى صار الكثير منا يميل إلى تبني كل ما جاءنا من الغرب هكذا جزافا وصاروا يحتقرون كل ما لم يأتهم من تلك الجهة وخاصة لغتهم العربية عماد ثقافتهم، ولذلك أسباب كثيرة.

وأول هذه الأسباب لا يخص العرب وحدهم فالغزو الثقافي وتسلط اللغات الغربية –وأهمها الإنكليزية– **على العالم بأسره** نجح إلى الآن بتفوق الأمم الغربية في الميدان العلمي والتكنولوجي تفوقا كبيرا جدا. فلغة الأقوى منهم علميا واقتصاديا هي التي تسود بل لغة الأقوى (أيا كان) هي التي ستفضّل على غيرها ولغة الأضعف هي المحتقرة من قبل أصحابها أنفسهم. وذلك لأنها تحمل وتنقل من المفاهيم العلمية الجديدة الناجعة ما لا يوجد مثله فيما تنقله اللغات الأخرى. وكذلك هي المهارات التقنية وهي أهم شيء في عصرنا هذا.

فاللغة هي دائما مرآة للوضع الحضاري والمستوى العلمي والتكنولوجي للأمم ولغتنا لا تنقل في عصرنا الحاضر الأفكار والنظريات العلمية الطلائعية إلا بقسط ضئيل. فالوضع الاقتصادي والعلمي للعرب حاليا المتصف بالقليل جدا من الإبداع والخلق لا يؤتي أي فرصة للغتهم لكي تكون لغة إشعاع علمي حضاري. فالعجز ليس من اللغة أبدا فأية لغة في الدنيا يمكن أن تبلغ ما بلغته اللغة الإنكليزية بتفوق أصحابها علميا وحضاريا. ولولا أن العربية لغة الإسلام ولولا أنها تحمل من المفاهيم الحضارية والدينية السابقة الوجود والكثير من المفاهيم العلمية التي كانت أساسا لانطلاق الحضارة الغربية لاندثرت منذ زمان أو انزوت إلى لغة تخاطب كبقايا اللهجات. وهذا يفسر التمسك الشديد بالتراث وقد قوي في العشرينيات الأخيرة وهو شيء إيجابي فيما يخص التراث اللغوي والعلمي إلا أنه ليس إلا مجرد دفاع من النوع السلبي فهو غير كاف.

أما الأسباب الخاصة باللغة العربية فهي متصلة بكيفية تعاملنا بلغتنا وتراثنا .منها تعاملنا بلغة الثقافة في زماننا وسائر اللهجات العامية. فالقرون الطوال من الجمود الفكري وعدم الإبداع في العلوم والفنون وتقلص التجديد في أساليب التسيير في جميع الميادين وبالتالي ضآلة كل إنتاج فكري وصناعي وحضاري مع الغزو الاستعماري الشرس الذي نشر في الشعوب العربية– وسائر الأمم غير العربية– الفقر والجهل جعل كذلك الأمية تسود وتعمّ كل الشعوب العربية فنتج عن ذلك **ابتعاد الفصحى لغة الثقافة عن لغة التخاطب ابتعادا ملموسا جدا**.

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للغات الغربية **فلغة التخاطب في البلدان الغربية** –إن لم تكن لهجة محلية– **قريبة من لغة الثقافة** إلا في المصطلحات العلمية الدقيقة. والمعروف عند علماء اللسان أن لغة التخاطب هي أخفّ بكثير من اللغة المحررة لأنها تستعمل يوميا وفي كل وقت وخاصة في وقت الاستئناس وعدم الانقباض كما يقول الجاحظ. والواقع أن لكل لغة في الدنيا، قديما وحديثا، مستويين في الأداء الشفوي: المستخف منه والمنقبض. فالأول هو الخاص بالتخاطب اليومي العادي ويكثر فيه التخفيف كاختزال الحركات (وسمي بالاختلاس والإخفاء عند النحاة) والمحذوف للحروف والكلم والإدغام بين أواخر حروف الكلمة والكلمة التالية وغير ذلك من أنواع التخفيف. وأما الثاني فهو الأداء الذي يتمسك به في الخطب والمحاضرات في المحافل وكل مقام ذي حرمة. وهذا يخص اللغات التي يكون لأصحابها كتابة تنقل ثقافتهم وتحفظها. وكل الأمم التي لها حضارة كتابية تحافظ على هذا الأداء الثاني لأنه **هو الذي يجمعها ويحفظ لها تراثها** وهو أبطأ تغيّرا عبر الزمان من الأداء العفوي فقد يتغير في الزمان كما يتغير في المكان (ولا يكون بالضرورة لهجة) . إلا أنه من أسرار التفوق الحضاري والاقتصادي ألا يكون هذا الأداء المنقبض هو الوحيد الذي ينقل الثقافة. **فللكلام المنطوق أهمية مماثلة للكلام المكتوب وخاصة في عصرنا هذا** بل قد يفوقه بتطور وسائل الاتصال ألشفاهي ويتجاوز كل ما هو مقروء فلا يمكن أن ينطق بالفصحى المرتّلة الباحث والأستاذ وأي ناطق بالفصحى في جميع المناسبات وخاصة في أحوال الخطاب التي تستلزم التخفيف والاسترسال. فليس كل خطاب خطبة وقد يظن الظان أننا نعني بذلك العامية– لكثرة ما رسخ في الأذهان أن التخفيف هو لحن– فالذي نعنيه هو الفصحى التي كان يتخاطب بها العرب في حياتهم اليومية ولم تكن لهجات بالضرورة والقراءة القرآنية المسماة بالحَدْر، ورويت من الأئمة، دليل قاطع على أنها أداء فصيح. وسنرى كيف يمكن إحياء هذا الأداء الفصيح من جديد.

ومهما كان فانعزال الفصحى – وهي لغة الثقافة– عن الحالات الخطابية النابضة بالحياة أي الحياة اليومية هو خطير جدا لأنه تبدو بذلك العربية كأنها لغة مصطنعة غير طبيعية. وقد اقتنع بعضهم بسبب احتقاره للفصحى بضرورة إقامة العاميات في كل بلد عربي مقام الفصحى

للنقص الفظيع الذي تتصف به بالنسبة إلى « حضارة المشافهة » الحديثة. فهذا موقف خطير لأنه يتناسى هؤلاء أن لجميع اللغات في الدنيا مستويين على الأقل في التعبير: المأنوس والمنقبض كما قلنا إلا أن المجتمع الذي تكثر فيه الأمية **يبتعد فيه الأداء ألترتيلي عن الأداء العفوي**. والطامة الكبرى في ذلك هو أن يصير التخفيف الخاص بالتخاطب لحنا في اعتقاد أكثر الناس وهذا يجب تقويمه عند الخاصة والعامة وبالخصوص عند المعلمين.

فيكون عندئذ المعلم الذي يمنع كل تخفيف – قد نطق به العرب وقرئ به القرآن– جهلا منه[1] يساهم في إقصاء الفصحى من هذه الحالات الخطابية الحية.وهي حية لأن التخاطب العفوي يعمّ الحياة اليومية. وأخطر من هذا هو أن المسموع من الكلام **صار يغطي جزءا كبيرا جدا من ميادين الثقافة والعلوم** ولا يمكن أن يقوم فيه الأداء ألترتيلي مقام الأداء المستخف. وهذا من القوانين الطبيعية ولهذا ينفر أكثر الناس اليوم من استعمال الفصحى لأنهم لا يعرفون منها إلا الترتيل **فكأن الناطق بها يقرأ من كتاب وهذا بعيد** عن العفوية.

وقلنا بأن الأداء المستخف ليس لحنا ولا علاقة له بما تتصف به العامية وهو اللحن ولا تتصف العامية بالخفة في الأداء إلا لأنها تستعمل دوما في التبادل الشفهي لا المحرّر.

هذا وسبب آخر في انعزال الفصحى عن حركة التقدم العلمي العالمي هو التقصير الفظيع بل والإهمال لجانب هام من النشاط اللغوي وهو من جهة: الترجمة لما يصدر يوميا من البحوث ومن جهة أخرى العجز عن تغطية حاجاتنا في ميدان المصطلحات **وتوحيد ما هو موجود منها**. وقد يستغرب القارئ والسامع مما نقول مع وجود حركة للترجمة للكتب العلمية العربية ووجود القوائم من المصطلحات التي تضعها المجامع وغيرها ومع وجود المؤسسات المخصصة لهذا الغرض. وسنرى أن هذا الذي يصدر غير كاف أبدا وغير مناسب ولا يستجيب لما تتطلبه المواكبة الجدية للتقدم العلمي العالمي.

وأما تعليم اللغة العربية في مختلف المستويات فله سهم أيضا في تأخر العربية وعدم نجاحها في منافستها للغات الأجنبية. وأكبر عيب فيه أنه لا يتجدد كما يتجدّد تعليم اللغات الغربية في مضمونه وطرائقه إلا قليلا وعلى الرغم من وجود كليات التربية وما يجرى في بعضها من البحوث في تعليم العربية فإن التحسن الملاحظ في تعليم أكثر اللغات لا نحس بوجود ما يماثله في تعليم العربية إلا ما شذ من ذلك في البلدان العربية.

أما البحث العلمي في اللغة العربية وما يتعلق بذلك فعلى الرغم مما يجري هنا وهناك في الجامعات العربية ومراكز البحوث فالمردود فيه ضئيل إلا ما شذ هنا أيضا. ويعرف كل مثقّف أن

---

(1) والذي قد يتجاهله المعلمون هو ان العربية الفصحى التي كان يتخاطب بها العرب في زمان الفصاحة السابقة كانت بنفس الخفة التي تعرفها العامية اليوم والدليل على ذلك أوصاف النحاة الأولين لها كسيبويه وأهل الأداء (علماء القراءات)

العلوم اللسانية في زماننا قد ارتقت ارتقاء عاليا في البحوث العلمية الأساسية منها والتطبيقية وأن كل ما يتعلَّق باللغة من تنمية ومردود في التعليم وتكيُّف مع ما يتطلَّبه العصر قد حصل فيه تقدُّم رائع فلا بد أن ينظر في هذه العلوم وكم من قسم خاص باللغة العربية تجاهل كل هذا إلى اليوم ولم يُعِر لهذه العلوم الحديثة ما تستحقُّه من أهمية إلا القليل. ونرجو أن يتم التعاون بين اللغويين العرب فهذا من أخطر ما يكون لمستقبل اللغة العربية.وقد لاحظ الجميع وجود اهتمام كبير جدا في الأيام الأخيرة باللسانيات وهذا شئ إيجابي جدا.

وسبب آخر يزيد العربية عُزلةً –زيادة على ما ذكرناه– وهو عدم إمكانية التواصل بينها وبين غيرها من اللغات الذائعة في العالم ومن ثم انقطاع العربية من مناهل العرفان وسبل الترقي العلمي والتكنولوجي. وهذا يحصل عندما يعجز المثقف العربي عن الاغتراف من هذه المناهل مباشرة لمعرفته الضعيفة للغات الأجنبية أو لجهله لها تماما. فالعالم الباحث الذي ليس له إلا لغة واحدة لا يستطيع أن يثري، في زماننا هذا،ما قد حصل عليه من المعلومات في الجامعة. فعجزنا عن ترجمة كل ما يصدر بهذه اللغات من البحوث الطلائعية التي لا يليق بالأمة العربية أن تتجاهلها، فعجزنا هذا –وهو حقيقة ملموسة– يضطرنا أن نتقن اللغة الإنكليزية أو الفرنسية اضطرارا لا مزيد عليه. ولا يكفي في نظرنا أن نضاعف ساعات اللغات في التعليم ما قبل الجامعي بل لابد من اتخاذ التدابير الحازمة في ذلك لنجعل كل طالب في البلدان العربية يستطيع في أي وقت أن يرجع إلى المراجع العلمية وأحدث البحوث المحررة بإحدى هاتين اللغتين. وسنقترح بهذا الصدد بعض الاقتراحات التي ستساعد على تحقيق هذه الغاية.

اقتراح جملة من الحلول والتدابير

فيما يخص استعمال الفصحى في الحياة اليومية فلا نتصور أن يمكن اللجوء إلى الأداء الوحيد الذي تعَلّمَهُ كل واحد منا في المدرسة لأنه أداء لما يُقرأ لا لما يُنطق عفويا فهو ترتيل وتحقيق ولا يكون مستساغا إلا في «موضع الانقباض» أي في ترتيل القرآن وإلقاء الخطب والمحاضرات. فالمدرسة لا تعلم الأداء المنطوق المسترسل بل ولا يعرفه المعلمون لأنهم أيقنوا أن للعربية نوعًا واحدًا من الأداء وهو الذي يعلمونه لتلاميذهم. واستمرّ ذلك منذ قرون فقد كان المعلم يبالغ في بيان الإعراب فيمدّ ما كان يجب قصره في التخاطب العادي ويمطط أصوات الحركات ويبيّن ولا يدغم أبدا ما يجوز فيه الإدغام وغير ذلك من المبالغات. والمعلم معذور في ذلك لأنه غيور على العربية ويخشى دائما أن تشبه الفصحى العامية من جميع الجوانب حتى ليمنعُ أن يستعمل التلميذ الكلمات الفصيحة المبتذلة في العامية. وبدأ ذلك منذ زمن بعيد فقد حكى الجاحظ في كتابه البيان أنهم «كانوا يروّون صبيانهم الأرجاز **ويعلمونهم المتناقلات** ويأمرونهم برفع الصوت **وتحقيق الإعراب**»(1 / 272).

ويروي الجاحظ ما كان تعوّد عليه بعض الناطقين بالفصحى من المولّدين ويسميهم بالمتشدقين وأصحاب التقعّر وهم يمثلون طبقة من معاصريه من الذين اكتسبوا العربية بالتعليم فكان أداؤهم للفصحى في الغالب ينقصه في المشافهة ما كانت تتصف به من الخفة لغة الفصحاء السليقيين. وقد وصف العلماء هذه الخفة. جاء في كتاب «نثر الدرّ» للوزير أبي سعيد الآبي :«قال أبو العيناء: ما رأيت مثل الأصمعي، أنشد بيتا من الشعر فاختلس الإعراب. ثم قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: كلام العرب الدَّرْج وحدثني عبد الله بن سوار أن أباه قال: العرب تجتاز بالإعراب اجتيازًا. وحدثني عيسى بن عمر أن ابن أبي إسحاق قال: العرب ترفرف على الإعراب ولا تتفيهق فيه. وسمعت يونس يقول :العرب تشامّ الإعراب ولا تحققه وسمعت الخشخاش بن الحباب يقول: إعراب العرب الخطف والحذف» (ص 7/154–155) ولم يكنْ هذا خاصا بالإعراب فقد وصف سيبويه ما يُسمى بالاختلاس للحركات ويحصل في صلب الكلمة (الكتاب، 2/297). فهذه الخاصية التي امتاز بها الأداء العفوي العربي هو الذي تناساه المعلمون –وحتى العلماء في زماننا. ولم يكن التقعُّر خاصا بالمتكلمين العاديين فقد أصاب أيضا بعض القراء. فقد قال ابن مجاهد: »قال محمد بن الهيثم: واحتجّ من عاب قراءه حمزة بعبد الله بن إدريس أنه طعن فيها. وإنما سبب هذا أن رجلا ممن قرأ على سليم حضر مجلس ابن إدريس فقرأ فسمع ابن إدريس ألفاظا فيها إفراط في المدّ والهمز وغير ذلك من التكلف المكروه. فكره ذلك ابن إدريس وطعن فيه »(كتاب السبعة،77). ويمكن أن نذكر هاهنا بعض الأمثلة لهذا التخفيف. ففيما يخص اختلاس الحركات فإن العرب، كما مرّ بنا، كانوا يكثرون من الاختلاس للمصوتات وأصح الأمثلة لذلك هي أمثلة سيبويه: يضربها »[1] ومن مأمنك «وإلى بارئكم» (1/297) وكذلك: اسم موسى وابن نوح. وأما الهمزة فلها ثلاثة أنواع من التخفيف كما هو معروف: الحذف مثل بيرومومن وجعلها بين بين مثل سال وقلبها. وأما الإدغام بين كلمتين فمثل :أكرم به >أكربّه –انعت طالبا > انعطّالبا ابعث ذلك > ابعذّلك – مذ زمان > مُزّمان وغير ذلك. وقلب الحروف كثير أيضا مثل أشدق > اجْدق – أصدق> اصدق. وأما الوقف فهو يشمل جميع المستويات وعدم الوقف هو لحن في الآدائين معا.

هذا والذي نقترحه للاستجابة لما يتطلبه العصر من التواصل الشفاهي الشامل **فهو إعادة الاعتبار في التعليم** لهذا الأداء المسمّى بالدَّرْج أو الإدراج (وسميت العامية بالدارجة بسبب التأدية المستخفة ويسمى عند القراء بالحدْر) مع إبقاء الأداء الآخر على ما هو عليه (بشرط تنقيحه والاعتداد بالوقف فيه). وهذا يحتاج أن يصدر بشأنه قرار في المستوى العربي الدولي

(1) قال أبو عمرو الداني في المحكم: »فلتجعل علامة الحركة المختلسة إن كانت فتحة نقطة فوق الحرف وإن كانت كسرة نقطة تحته وإن كانت ضمة نقطة فيه أو أمامه» (ص 44–45).

ويُعدّ له العُدّة في القطاع المعنى بالتعليم. فمن الضروري أن تخصص له حِصَص في دروس اللّغة العربية في المستويات الأولى ويُستعان في ذلك بالوسائل السمعية البصرية وكذلك في مستوى تكوين المعلمين مع التنبيه الدائم أن هذا الأداء هو فصيح ويختص به التخاطب ألشفاهي العفوي غير المحرّ ويليق مثلا للمسرحيات والأفلام والموائد المستديرة والأحاديث وكل مقام أنس ولا يحل أبدا محل الأداء الآخر الذي يقتضيه المقام المناسب له.

ولابـد أن يدّعـم هذا التجديـد التعليمي بالنسبة للغة ذاتها بتجديـد جذري لطرائق تعليم العربية وهذا يرتبط أشد الارتباط بالبحث العلمي في تعليم العربية وهو متوقف عليه. وسنعود إلى ذلك فيما يلي.

أما محاولة تفصيح العامية فقد يقوم المجمع المصري بمثل هذه المحاولات إلا أن الهدف يختلف: فالتعليم العادي للغة العربية يجب في نظرنا أن يعتدّ بالأدائيين المسترسل والمنقبض اللذين عرفهما السليقيون ممن أخذت منهم اللغة (وهما موجودان في جميع اللغات) وكلاهما ينتمي إلى العربية الفصحى وغياب الأداء المسترسل الفصيح يؤدي إلى تعميم العامية في جميع المقامات واستبدادها بها من تلك التي يسود فيها الاسترسال حتى في تدريس العربية الفصحى نفسها: يستريح المعلم بلجوئه من الأداء المنقبض إلى العامية وهو أمر جد طبيعي وينبغي أن نلوم أنفسنا ولا نلومه هو لأننا لم نعلّمه كيف يحدّث غيرّه بالفصحى المسترسلة في المقامات التي تستلزم ذلك.

أما فيما يخص نقل العلوم والتكنولوجيا إلى العربية فهو من أهم الوسائل وأخطرها لرفع المستوى الثقافي للمواطن العربي وبالتالي لترقية لغته العربية. وقد قلنا أن حركة الترجمة ضعيفة جدا في الوطن العربي لأسباب كثيرة منها عدم التدعيم المادي والتقني لهذه الحركة على الإطلاق (إلا في بعض المؤسسات القليلة) وفقدان التكوين في الترجمة في أكثر البلدان العربية (ومدرسة واحدة في البلد الواحد غير كافٍ أبدا)ولأنه لم تجعل السلطة عندنا دور الترجمة في أعلى مرتبة من الضروريات التي لا مناص منها ونعني بذلك الترجمة للعلوم. فالاطلاع على أحدث ما يتوصّل إليه العلماء من الأفكار والنظريات والتحقيقات والإنجازات هو أمر حيوي في زماننا ولا أتصور باحثا لا يرجع إلى ما جدّ من جديد في تخصصه باستعمال شبكة الانترنت وغيرها من الوسائل الحديثة. ثم لماذا يحاول بعض إخواننا أن يترجم هو وحده كتابا في الفيزياء أو الكيمياء فيطول عمله إلى عدة سنوات أحيانا فيصير محتوى الكتاب قد تجاوزته الاكتشافات وما جدّ من النظريات.

فالذي نقترحه هو أن ينشأ في **كل مؤسسة علمية في الوطن العربي** –كالجامعات والمعاهد ومراكز البحوث– قسم خاص لترجمة لا الكتب فقط بل أهم **وأخطر البحوث والمقالات العلمية**

الصادرة في كل وقت على المستوى العالمي وذلك في إطار منسق تتكفل بتنسيق العمل فيه هيئة عليا من العلماء على مستوى اتحاد الجامعات وغيرها ويتعاون في ذلك مع المركز للترجمة التابع للأليكسو. ولابد من اختيار **ما لابد من ترجمته على الفور** بالاعتماد على مقاييس موضوعية وبتخطيط مناسب.

وفيما يخص توحيد المصطلحات فلئن كانت المؤسسات المهيأة لذلك قد بذلت مشكورة جهودا طيبة في ذلك إلا أنه لابد أن يرجع الإقرار النهائي للمصطلحات إلى اتحاد المجامع اللغوية فهذا لا يمكن أن يتكفل به إلا اتحاد المجامع اللغوية العربية فهو يمثل كل المجامع العربية وكل مجمع لغوى في كل بلد يعتبر أعلى هيئة علمية يحق لها أن تقر المصطلحات. والذي نقترحه زيادة على ذلك، هو أن يُطوّر الاتحاد طريقة التوحيد بالاعتماد على الاستعمال الحقيقي للغة العربية وباللجوء **إلى الاستفتاء الواسع** بالنسبة إلى أهل الاختصاص المعنيين بالأمر. وإقرار ما تختاره الأغلبية منهم وبالرجوع إلى الذخيرة العربية للتثبت من مدى استعمال الألفاظ المختلفة للمصطلح الواحد في الوطن العربي من جهة والبحث في الذخيرة عما استعمله العرب مما هو قريب من المصطلح الأجنبي الذي لا يوجد له مقابل عربي من جهة أخرى..

أما فيما يخص البحث العلمي في اللغة العربية فهذا أيضا له خطورته والذي نتصوره كأنجع نموذج لهذا هو **البحث الجماعي المتعدّد الاختصاصات** أو الجوانب. فالبحث في العربية التقليدي هو بحث فردي وحِرَفي الوسائل وجُزئي غير شامل للمادة أو الميدان الذي يجري فيه. أما ما نقترحه للغة العربية فهو أن يتعاون على إنجاز البرنامج الواحد في المؤسسات العلمية المعينة عدد كافٍ من الباحثين ينتظمون على فرق لكل فريق منها تخصص وجانب من البحث. ومجموعة الفرق تتعاون على تحقيق هدف أو مجموعة أهداف لا يمكن أن تحقق إلا بمساهمة الجميع. فهذا هو البحث الناجع الذي يتجاوز بحوث الأفراد المنقطعين بعضهم عن بعض. أما الوسائل فقلما رأينا باحثًا يلجأ إلى المسح الشامل للمعطيات القديمة أو الحديثةبالاعتماد على الوسائل التكنولوجية الحديثة. فقد دخل الحاسوب اليوم في كل مكان إلا في بيت الباحث اللغوي عندنا إلا القليل منهم. وقد سمعنا أعضاء الاتجاهات العلمية المختلفة يذكرون ضرورة استعمال الحاسوب ولا يذكرون بالضبط الأهداف من استعماله والمناهج العلمية –لا أقول التقنية– التي يحتاج إليها الباحث في اللغة العربية للاستفادة من الحاسوب وقد لا يعرف كيف يستفيد بالحاسوب لا كمهندس بل كلغوي.

ثم أخطر من هذا هو أن يقوم ببحث يحتاج فيه إلى آلاف النصوص كالبحث في تطور معاني المصطلحات وسائر الألفاظ الأساسية في ميدان معين. ولا يفكر في إيجاد ما لا بد منه علميا ومنهجيا في هذه الحالة **وهي مدوّنة كبيرة** من النصوص. والذي نعرفه هو أنه لم يؤلف

اليوم معجم في العالم غير الوطن العربي بالطريقة العلمية (غير التجارية فقط) إلا بالاعتماد على مدونة فهي المرجع العلمي لكل ما يوجد في المعجم. وحتى معاجم المصطلحات التي يقترحها واضعها أو واضعو المعجم فلا بد لها من نصوص كمرجع موضوعي لها.

وقد اقترحنا قديما إنشاء مدونة للاستعمال الحقيقي للغة العربية سميناه بالذخيرة العربية ويكون لها موقع على شبكة الانترنيت ليستفيد منه كل المواطنين العرب.وقد وفق المسعى لتحقيقه وهو الآن على وشك الإنجاز والذي نتمناه هو أن يتعاون جميع العلماء في إنجازه بدون استثناء إن شاء الله.

والبحث العلمي في اللغة العربية لا ينحصر في البحث عن تطور معاني الكلمات لان للغة جوانب شتى: فهي أصوات وهذه الأصوات أدلة متواضع عليها للدلالة على المعاني ولها نظام خاص واللغة أداة للتبليغ فاستعمالها يستحق أيضا النظر فيه علميا إذ له قوانين وهي غير القوانين الباطنية التي يخضع لها نظامها وللكلام اضطرابات مرضية أيضا

وهو ميدان هام جدّا لأنه يمكّن للباحث أن يكتشف من الظواهر وأسرارها ما لم يجده في المتكلم السويّ . ولتعليم اللغة مشاكل عويصة تحتاج أن ينظر فيها النظر العلمي.وكل هذا يحتاج إلى أن تشترك في البحث فيه الاختصاصات المتنوعة من اللساني إلى الإلكتروني إلى الرياضي إلى الفيزيولوجي و الطبيب وعالم النفس وعالم الاجتماع والمربي[1].

ولا يمكن أن يعمل هؤلاء معا ويتعاونوا على إنجاز شئ ملموس ومفيد إلا إذا كان كل واحد منهم على علم بما تثبته علوم اللسان من الحقائق العلمية وما تكتشفه من أسرار في الظواهر اللسانية كما يجب أن يكون أيضا كل واحد منهم قادرًا على استعمال الطرق الحديثة في جمع المعطيات و ترتيبها و رصدها باللجوء إلى الحاسوب وغير ذلك مما صار الآن ضروريا في البحث العلمي.

أما البحث الخاص بمضاعفة مردود تعليم العربية فقد يقتصر بعض الإخوان على المحاولات التي صدرت من بعض العلماء في القرن الماضي كالرجوع، كما يقولون، إلى الطريقة الاستقرائية وترك غيرها. والحق أن الطريقة التي نريدها ناجعة لايكتفي فيها بنهج واحد كما تبينه التجارب التي أجريت في تعليم عدة لغات غير العربية. والذي نقترحه هاهنا هو البحث المعتمد على تجربة منتظمة للطرائق والنزول في ذلك إلى الميدان وبفرق من الباحثين المتخصصين في تعليم اللغات(وأصبح الآن علما قائما بذاته وهو ما يسمى الديداكتيك بالفرنسية). وأنجع منهج في ذلك هو **التجربة المقارنة لأكثر من طريقة ولأكثر من لغة**. ويجب في نظرنا الاعتداد بالنظرية

(1) ويمكن أن تفتح لذلك أقسام في بعض الجامعات أو مراكز تجمع هذه التخصصات حول هدف واحد وهو ترقية اللغة العربية.

اللسانية التي اعتمد عليها في وضع الطريقة التعليمية إذ لا بد من نظرية لسانية توجّه الباحث في بحوثه عن أنجع طريقة من جهة ونظرية تعليمية (ونفسانية اجتماعية) من جهة أخرى. وأحسن النظريات العلمية هي أقدرها على تفسير الظواهر الكثيرة وأكثرها استجابة لما تتطلبه الصياغة المنطقية الرياضية ومن ثم ما يتطلبه الحاسوب في ميدان العلاج الآلي للمعلومات.

ومن هذه النظريات اللسانية التي يمكن أن تستجيب لمتطلبات الصياغة المنطقية الرياضية ومن ثم لما يتطلبه العلاج الآلي نذكر القراءة الجديدة لما تركه الخليل بن أحمد وسيبويه وكل النحاة الذين تتكون منهم المدرسية الخليلية القديمة. وهذه القراءة الجديدة تكوّن الآن نظرية متكاملة سموها بالنظرية الخليلية الحديثة. والذي نقترحه هو أن يطلع على هذه النظرية وكيفية استثمارها كل من يرغب في ذلك من الطلاب والباحثين وذلك في إطار التعاون بين المؤسسات العلمية العربية.

أما إثراء العربية بالمعلومات الحديثة في أحدث صورها فالمبدأ عندنا في ذلك هو ألا تبقى العربية مقطوعة الصلة عن غيرها من اللغات بجهل أهلها من العلماء بهذه اللغات أو عجزهم بكيفية أو بأخرى عن استغلالها كوسيلة لاقتناء المعرفة من جهة ومن جهة أخرى ألا يقوم أي تعليم جامعي في العلوم والتكنولوجيا في المؤسسات التي لم تُعرّب تعليمها على اللغة الأجنبية وحدها بل أن تكون العربية موجودة في كل تعليم للعلوم أيا كان وذلك إن لم يمكن التعريب لكل المواد لسبب من الأسباب. فالخطر كل الخطر أن يتم التعليم للعلوم بلغة واحدة وأن تكون هذه اللغة غير العربية.

ومهما كان فالتواصل الوثيق بين العربية واللغات الأجنبية هو جدّ ضروري ومفيد في عصرنا هذا. والواقع أنه لا يوجد من يتقن اللغة الأجنبية إلا من درس على الأقل مادة واحدة بهذه اللغة فمعرفة اللغات الناجعة مرتبطة بالدراسة ولو مادة واحدة بهذه اللغة. وقد بينت التجربة أن ما يتعلمه الطالب في الثانوي من اللغة الأجنبية لا يكفي أبدا ليتمكن من الرجوع إلى المراجع الأجنبية بكيفية ناجعة.

فالنقص في نظرنا هو في التكوين العلمي الذي يعتمد كله في جميع أشكاله على لغة واحدة. فالباحث الذي لا يستطيع أن يتابع محاضرة باللغة الأجنبية ولا يستطيع أن يرجع إلى مرجع أجنبي ولا يستطيع أن يرجع إلى شبكة الانترنت قد أغلق على نفسه في عصرنا هذا جميع أبواب الترقي العلمي والتكنولوجي وحقق التقوقع الذي ما يزال يتضرّر منه المثقف. وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى اللغة العربية فإن منعت من أن تكون لغة التعليم للعلوم والتكنولوجيا وأُقصيت عن هذا الميدان فستنزوي بل وستزول كلغة حية. ونعوذ بالله من هذا المصير الذي سيؤدي إلى تلاشي الرباط الوحيد الذي يربطنا معشر العرب، والذي يحلم به الاتحاد الأوربي على الرغم من قوته وسؤدده.

ونختم مقالنا بالإشارة ثانيا إلى مشروع عربي حضاري كبير كان مجرد اقتراح وأصبح والحمد لله مشروعا عربيًا إقليميًا وهو بصدد الانجاز وهو مشروع «الذخيرة العربية» أو«الانترنيت العربي». وهو قاعدة معطيات (محوسبة) أو بنك آلي من النصوص سوف يجمع الإنتاج الفكري العربي القديم (التراث) والحديث وما يتميز من الإنتاج العلمي العالمي منقولا إلى العربية ويكون كل هذا في متناول أي مواطن عربي في أي مكان وأي وقت وبأقصر الطرق فيلجأ إليه التلميذ الصغير أو المراهق لعدم فهمه لدرسه الذي تلقاه في مدرسته أو يكون عليه عمل كلّف به ويحتاج إلى معلومات خاصة فيحصل عليها في الحين ويلجأ إليه العالم البحاثة لأنه يحتاج أن يلمّ في كل وقت على أحدث ما توصل إليه الباحثون من اختصاصه وقد لا يصل إليه هذا إلا بعد مرور زمن طويل. ويكون التراث العربي في متناول كل من يسأل عن معلومة تخص إنتاج علماؤنا القدامى. والفرق بين هذه الذخيرة وغيرها من مصادر العلم هي في كون العلاقة بينها وبين طالب معلومة مخصوصة هي علاقة تفاعل: يسأل السائل ويُجيب بعد بحثها عن الجواب. وكل ذلك بالعربية. ولا شك أن العربية تستفيد من ذلك بترقية المستوى الثقافي للشعوب العربية عامة.